قيمة حسن الخلق في الدعوة إلى الله

حُسن الخُلق له دور عظيم في الدعوة إلى الله - تبارك وتعالى - وقد أمرنا الله عَزَّ وَجَلَّ بالتحلي بحسن الخلق وذلك عندما أمر نبيه ﷺ توضيح ما يجب أن يكون عليه الداعية من أخلاق فاضلة ومن الصفات الكريمة، والتعامل الحذر الفطن، وأفضل من اتصف بالأخلاق الفاضلة، وسعة الصدر، وهدوء الحوار، وحسن الكلام، والصبر الجميل الداعية إلى الله تعالى، والناصح الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر، وهذه الصفات الكريمة امتن الله بها على رسوله ﷺ ليكمل له خلق الدعوة بتمام أخلاقه وفضائله.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

والله عَزَّ وَجَلَّ يُحقق باللين والمروءة ما لا يُحققه بالشدة والتعصب فإن النفوس مهما بلغتْ من الفساد والعناد؛ فإن فيها خير كثير قد لا تراه العين أول الأمر، لكن ذلك الجانب الطيب في نفوسهم يظهر بشيء من الود وسعة الصدر المبنى على النصح والصدق والإخلاص، كأن يبدأ المسلم من ينصحه بالسلام، والتبسم له، والثناء عليه بخيرٍ يجده فيه، عند ذلك ستنفجر ينابيع الخير في نفس المدعو، وسيمنح ذلك الداعية حبه وثقته مقابل ما أعطاه له من لين في الحديث، واستبشار في الوجه.

فمن الواضح أن من أسباب عناد بعض العصاة وإصرارهم على المعصية سوء طريقة دعوتهم، وعدم فقه من يدعونهم، وجفاءهم معهم وغلظتهم في النصح، وشدة تطبيق الأفكار عليهم، وعدم اتباع الدعاة الطريقة الحسنى في إيضاح الحق لهم، وقد وضح الله عَزَّ وَجَلَّ القاعدة المثلى في الدعوة إليه.

فكثير من العصاة عندما تسألهم لما لا تتبعون الدعاة بالحق؟ يعللون ذلك بقسوة هؤلاء الدعاة، واستخدامهم الكلمات الجارحة التي تؤذى شعور المدعوين.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴾

[الإسراء:٥٣]

فاستخدام الحكمة والموعظة الحسنة، وحسن التصرف في الدعوة يُعتبر من أفضل أساليب الدعوة إلى الله تعالى، فمن أقوي أسباب الألفة وجلب محبة الآخرين خفض الجناح لهم، وترك الأغلاط لهم في القول.

يقول ابن بطال: «المداراة من أخلاق المؤمنين، وهى خفض الجناح وترك الإغلاظ لهم في القول، وذلك من أقوى أسباب الألفة».

obeikandl.com

مقتطفات من أخلاق النبي ﷺ

يحسن بنا أن نتناول في هذا الموضوع بعض شمائل النبي ﷺ خير مثال لنا نقتدي به إذ هو خير البرية وأزكى البشرية، وأحسنها خلقًا وأكرمها على الله تبارك وتعالى فقد زكاه ربه تبارك وتعالى.

فقال تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤].

وقد وصفه الله تبارك وتعالى بأنه بالمؤمنين رءوف رحيم.

قال تعالى: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٢٨].

فقد جبله الله تبارك وتعالى على حميد الخلال، وفطره على كريم الخصال، ثم أدبه فأحسن تأديبه، ورباه فأحسن تربيته فكان خلقه القرآن، ورد عن أم المؤمنين عائشة

رضي الله عنها عندما سُئلتْ عن خُلق رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قالت: «**كان خُلقه القرآن**»(١).

وقد ظهر أدب الله عَزَّ وَجَلَّ له في أمره بالإعراض عن الجاهلين.

قال تعالى: ﴿ **أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ** ﴾ [الأعراف: ٩٩].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٩٠].

وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾

[فصلت: ٣٤]

---

(١) رواه مسلم في «البر» (٦٩).

obeikandi.com

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحجرات: ١٢].

والأوامر في هذه الآيات الكريمة ليس مقصودًا بها النبي ﷺ وحده بل مأمور بها أمته وأتباعه أيضًا.

فالنبي ﷺ المقصود الأول بالتأديب، والتهذيب، ثم منه يشرق النور على كافة الخلق، فإنه أُدِّب بالقرآن، فقد أثنى عليه ربه تبارك وتعالى قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤].

وكان من أخلاقه ﷺ نصرة المظلوم، وإعطاء المحتاج، والعفو عند المقدرة، والشجاعة والإقدام، والإنفاق في سبيل الله، والجود والكرم فكان أجود من الريح المرسلة ﷺ .

ولذلك يجب على كل مسلم أن يتبع أثره، ويسير على منهجه لأنه مثلنا الأعلى.

وكان أسخي الناس لا يبيت عنده دينار ولا درهم إلا وتصدق به، وكان لا يأخذ مما أتاه الله إلا قوت يومه فقط، وكان ذلك من أيسر ما يجد من التمر والشعير، ويضع ما زاد عن ذلك في سبيل الله، وكان النبي ﷺ لا يسأله أحدٌ شيئًا إلا أعطاه، ثم يعود على قوت يومه فيؤثر منه حتى إنه ربما احتاج قبل انقضاء اليوم إن لم يأته شيء، وكان يخصف النعل ويرقع الثوب ويخدم في مهنة أهله، ويقطع اللحم معهن وكان يُجيب دعوة العبد والحر، ويقبل الهدية ولو أنها كانت قدر جرعة لبن أو أخذ أرنب ويُكافئ

عليها، ويأكلها، ولا يأكل الصدقة، ولا يستكبر عن إجابة دعوة الأمة والمسكين.

وكان النبي ﷺ يغضب لربه ولا يغضب لنفسه، كان يعصب الحجر على بطنه من الجوع، وكان يأكل ما حضر، ولا يرد ما وجد، ولا يتورع عن مطعم حلال، وإن وجد تمرًا دون خبز أكله، وإن وجد خبز بر أو شعير أكله، وإن وجد حلوًا أو عسلًا أكله، وإن وجد لبنًا دون خبز اكتفي به، وإن وجد بطيخًا أو رطبًا أكله.

* وكان يعود المرضى ويشهد الجنائز، ويمشي وحده بين أعدائه بلا حارس، وكان أشد الناس تواضعًا، وأسكنهم من غير كبر، وأبلغهم من غير تطويل، وأحسنهم بشرًا لا يهوله شيء من أمور الدنيا.

* يلبس ما وجد، فمرة يلبس شملة، ومرة برد حبرة يمانيًا، ومرة جبة صوف فما وجد من المباح لبس.

obeikandl.com

* يركب ما أمكنه مرة فرسًا، ومرة بغلة شهباء، ومرة حمارًا، ومرة يمشي راجلًا حافيًا.

* يُجالس الفقراء ويُؤاكل المساكين، ويُكرم أهل الفضل في أخلاقهم ويتألف أهل الشرف بالبر لهم يصل ذوى رحمه من غير أن يؤثرهم على من هو أفضل منهم، لا يجفو على أحد، يقبل معذرة المعتذر إليه، يمزح ولا يقول إلا حقًا يضحك من غير قهقهة، يسابق أهله، ترفع الأصوات عليه فيصبر، وكان لا يمضى له وقت في غير عمل الله تعالى، أو فيما لابد له منه صلاح نفسه.

لا يحتقر مسكينًا لفقره، ولا يهاب ملكًا لملكه، يدعو هذا وهذا إلى الله دعاء مستويًا، قد جمع الله تعالى له السيرة الفاضلة والسياسة التامة، وهو أمي لا يقرأ ولا يكتب نشأ في بلاد الجهل والصحارى في فقر، وفي رعي الغنم يتيم لا أب له، فعلمه الله تعالى جميع محاسن الأخلاق، والصفات الحميدة وأخبار الأولين والآخرين، وما فيه النجاة

والفوز في الآخرة والغبطة والخلاص في الدنيا، ولزوم الفضل وترك الفضول، وما لعن امرأة قط، إلا أن يضرب بها في سبيل الله تعالى، وما انتقم من شيء صنع إليه قط إلا أن تنتهك حرمة من حرمات الله، وما خير بين أمرين قط إلا اختار أيسرهما إلا أن يكون فيه إثم أو قطيعة رحم فيكون أبعد الناس من ذلك.

* وما كان يأتيه أحد حرًا أو عبدًا أو أمة إلا قام معه في حاجته، ولم يكن فظًا ولا غليظًا ولا صخابًا في الأسواق، وما كان يجزي بالسيئة، ولكن يعفو ويصفح، وكان من خلقه أن يبدأ بالسلام، ومن قادمه لحاجة صبره حتى يكون هو المنصرف، وما أخذ أحد بيده فيرسل يده حتى يرسل الآخر، وكان إذا لقي أحدًا من أصحابه بدأه بالمصافحة، ثم أخذ بيده فشابكه ثم شد قبضته عليها، وكان أكثر جلوسه أن ينصب ساقيه جميعًا، ويمسك بيديه عليهما شبه الحبوة، ولم يكن يعرف مجلسه من مجلس أصحابه، لأنه كان يجلس حيث انتهى به المجلس.

obeikandl.com

* وما رؤى قط مادًا رجليه بين أصحابه حتى لا يضيق بهما على أحد إلا أن يكون المكان واسعًا لا ضيق فيه.

وكان يُكرم من يدخل عليه، حتى ربما بسط ثوبه لمن ليس بينه وبينه قرابة ولا رضاع يجلسه عليهما، وكان يؤثر الداخل عليه بالوسادة التي تحته، فإن أبى أن يقبلها عزم عليه حتى يفعل، وما استصفاه أحد إلا ظن أنه أكرم الناس عليه، وكان يعطى كل من جلس إليه نصيبه من وجهه وسمعه وحديثه ولطيف محاسنه وتوجيهه، ومجلسه.

وكان مجلسه مع ذلك مجلس حياء وتواضع وأمانة، ولقد كان يدعو أصحابه بكناهم إكرامًا لهم، واستمالة لقلوبهم، وكان يكنى من لم يكن له كنية، فكان يدعى بما كناه به، ويكنى أيضًا النساء اللاتي لهن أولاد واللاتي لم يلدن يبتدئ لهن الكني ويكني الصبيان فيستلين به قلوبهم.

* وكان أبعد الناس غضبًا وأسرعهم رضا، وكان أرأف الناس بالناس، وخير الناس للناس، وأنفع الناس للناس، وكان لا يشافه أحدًا بما يكرهه.

هذه بعض أخلاقه وشمائله ﷺ رزقنا الله حسن اتباعه ولقاءه والاهتداء بهديه اللهم آمين.

obeikandl.com